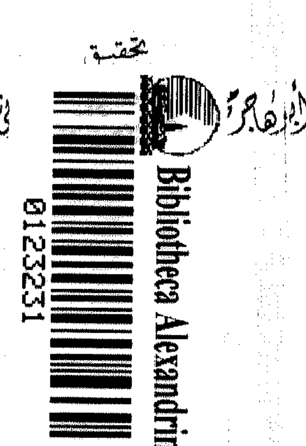


للعلامة الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

المتوفى ببغداد سنة ٥٩٧ هـ



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
١٤ ميدان العتبة القاهرة
ت ٩٢١٦٢٠

الطب الروحاني

للعلامة الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

المتوفى ببغداد سنة ٥٩٧ هـ

في فضل العقل . في ذم الهوى . في الفرق بين مايرى العقل وما يرى الهوى . في دفع البخل . في النهى عن التبذير والحض على الاقتصاد . في بيان مقدار الاكتساب والإنفاق . في ذم الكذب . في دفع الكسل والحض على الجد والعمل . في رياضة النفس . في رياضة الأولاد . في معاشرة الناس ومداراتهم . في ذكر السيرة الكاملة . .. إلخ

تحقيق

أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول

خادم السنة المطهرة

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

١٤ ميدان العتبة القاهرة

ت ٩٢٢٦٢٠

للناشر

مكتبة الثقافة الدينية

لصاحبها : أحمد أنسي عبد المجيد

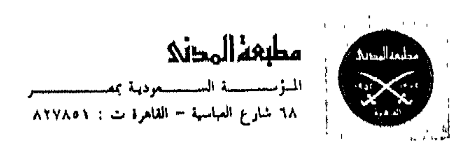
١٤ ميدان العتبة القاهرة

ت ٩٢٢٦٣٠

رقم الإيداع ٨٦/٥٠٣٢

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م



ترجمة المؤلف

هو عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى القرشى البغدادى أبو الفرج (١) .

علامة عصره فى التاريخ والحديث كثير التصانيف .

مولده ووفاته ببغداد ولد سنة تسع أو عشر وخمسمائه ونسبته إلى « مشرعة الجوز » .

له نحو ثلاثمائة مصنف منها :

تلقيح فهوم أهل الآثار فى مختصر السير والأخبار	طبع قطعة منه
الأذكياء وأخبارهم	طبع
الموضوعات	طبع
مناقب عمر بن عبد العزيز	طبع
روح الأرواح	طبع
شذور العقود فى تاريخ العهود	مخطوط
زاد المسير فى علم التفسير	طبع
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم	طبع ستة أجزاء منه
الذهب المسبوك فى سير الملوك	مخطوط
الحمقى والمغفلين	طبع
الوفا فى فضائل المصطفى ﷺ	طبع
مناقب عمر بن الخطاب	طبع

---

(١) الأعلام للزركلى ٣١٦/٣ و ٣١٧ ، سير أعلام النبلاء ٣٦٥/٢١

مناقب أحمد بن حنبل	طبع
غريب الحديث	طبع
التحقيق	طبع منه الجزء الأول

ومصنفات عديدة فى شتى العلوم

وفاته :

توفى رحمه الله ليلة الجمعة بين العشاءين الثالث عشر من رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة فى داره .

ودفن رحمه الله بباب حرب قرب قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتبه

أبو هاجر / محمد السعيد بن بسيونى زغلول الإبيانى

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى قدر الداء ودبر الدواء وكم وهب لمن أشفى على شفا هلكة الشفاء أحمده على كل ماصدر عن قضائه وجاء وأعلق بفضله ومنه الرجاء وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له نوَّر الفضاء فَضَاءَ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من وطىء الأرض والسماء وعلى أصحابه وأزواجه صلاة تعم الأتباع والأولياء وسلم تسليماً كثيراً . لما جمعت كتاباً فى طب الأبدان وسميته [لقط المنافع] آثرت أن أشفعه بكتاب فى طب النفوس أسميه « الطب الروحانى » فإن طب الأبدان إصلاح الصور وطب النفوس إصلاح المعانى وهى أشرف وإلى الله سبحانه الرغبة فى النفع العاجل والأجر الآجل إنه جدير بتبليغ الآمال من منّه (١) .

﴿ مقدمة قبل الكتاب ﴾

اعلم أن جميع ماوضع فى الآدمى إنما وضع لمصلحته إما لاجتلاب نفع كشهوة المطعم أو لدفع ضر كالغضب فإذا زادت شهوة المطعم صارت شرهاً فآذت وإذا زاد الغضب أخرج إلى الفساد . وهذا الكتاب موضوع لاستعمال قانون الصواب من خلال الباطن وكف كف الهوى عن المؤذى منها وعلاج ماخرج لموافقة الشهوة عن القانون الصحيح . وقد قسمته ثلاثين باباً :

---

(١) تم الإعتماد فى التحقيق على النسخة المطبوعة بمطبعة الترق بدمشق سنة ١٣٤٨ هـ وناشرها مكتبة القدسى .

﴿ ترجمة الأبواب ﴾

* * *

الباب الأول
فى فضل العقل

قد اختلف الناسِ فى ماهية العقل ومسكنه (١) ، وأطالوا ، وقد رُويت فى فضله أحاديث كثيرة ، وقد ذكرنا جملةً من ذلك فى كتابنا المسمى « بذم الهوى » فلا نعيدها بل نذكر ههنا جملة فنقول :

إنما يعرف فضل الشيء بثمرته ، ومن ثمرات العقل معرفة الخالق سبحانه ، فإنه استدل عليه حتى عرفه ، وعلى صدق الأنبياء حتى علمه ، وحث على طاعة الله ، وطاعة رسله ، ودبر فى نيل كل صعب حتى ذلل البهائم ، وعلمه صناعة السفن التى بها يتوصل إلى ماحال بيننا وبينه البحر ، واحتال على طير الماء حتى صيدت ، وعينه أبداً تراقب العواقب وتعمل بمقتضى السلامة فيها والعوز ، ويترك العاجل للآجل ، وبه فضل الآدمى على جميع الحيوان الذى فقده ، وبه تأهل الآدمى لخطاب الله سبحانه وتكليفه ، وبه يبلغ الإنسان غاية مافى جوهر مثله أن يبلغه من خير الدنيا والآخرة من العلم والعمل ، وكفى بهذه الأشياء فضيلة لا ببعضها . فليكتف بهذه الجملة عن الإطالة .

---

(١) جاء فى تاج العروس ٢٥/٨ مانصه :

(العقل العلم به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية) . واشتقاقه من العقل وهو المنع لمنعه صاحبه مما لايليق أو من المعقل وهو الملجأ لالتجاء صاحبه إليه كذا فى التحرير لابن الهمام .

وقال بعض أهل الاشتقاق العقل أصل معناه المنع ومنه العقال للبعير سمى لأنه يمنع عما لايليق قال :

قد عقلنا والعقل أى وثاق　　　وصبرنا والصبر مر المذاق

وقال ابن فرحون العقل نور يقذف فى القلب فيستعد لادراك الأشياء وهو من العلوم الضرورية .

الباب الثانى
فى ذم الهوى

الهوى ميل الطبع إلى مايلائمه ، فلا يذم هذا المقدار إذا كان المطلوب مباحاً ، وانما يذم الإفراط فيه ، فمن أطلق ذم الهوى فلأن الغالب فيه مالا يحل أو يتأول المباح بإفراطه ، واعلم أن النفس منها جزء عقلى فضيلته الحكمة ورذيلته الجهل ، وجزء غضبى فضيلته الحدة ورذيلته الجبن . وجزء شهوانى فضيلته العفة ، ورذيلته اطلاق الهوى ، فالصبر عن الرذائل فضيلة للنفس ؛ بها يحتمل الإنسان الخير والشر ؛ فمن قل صبره فحكّم هواه على عقله فقد صير المتبوع تابعاً والمأموم إماماً ، فلا جرم أن جميع مايرومه ينعكس عليه ، فإنه يتأذى من حيث قدر النفع ويحزن من حيث أراد الفرح .

وإنما فضل الآدمى على الحيوان البهيمى بالعقل الذى أمر بكف الهوى ، فإذا لم يقبل قوله وحكم الهوى كان الحيوان البهيمى أعذر من الآدمى ، ويدل على فضل خلاف الهوى تقديم كلب الصيد وإكرامه على أبناء جنسه ، وذلك لمكان مخالفته للهوى من حبس ماصاده على صاحبه دون أكله خوفاً من عقوبته أو شكراً لنعمته .

واعلم أن الهوى فى ضرب المثل كالماء الجارى الحديد الجرية ينحدر بسفينة الطبع . والعقل مرادفان عقل المراد وتوانى مر الماء بالسفينة . وينبغى للعاقل أن يعلم أن مقاساة الشدة فى خلاف الهوى أسهل مما يلقى فى موافقته . وأقل مايلقى موافقو الهوى أنهم يصيرون إلى حالة لا يلتذون به فيها ثم لا يصبرون عنه ، لأنه يصير بالإدمان عادة . كمدمنى الجماع وشراب الخمر . والتفكر فى هذه الأشياء تهون على الإنسان رفض الهوى . ومما يهون الهوى أن يتفكر الإنسان فى نفسه فيعلم

أنه لم يخلق لموافقة الهوى ، فإن الجمل يأكل أكثر منه ، والعصفور يسافد أكثر والبهائم مطلقة فى محبوباتها من غير حصر ولا يشوبهم ، غم فلما نقص حظ الآدمى من الشهوات ، ثم شيبت بالنقص علم أنه لم يخلق لذلك . وقد بينت لك أن المذموم من الهوى ما أفرط وهو الذى يحكم عليه العقل بالخطأ ، فأما ماتهواه مما تضطر إلى تناوله ويعينها على إصلاح حالها فممدوح لامذموم .

* * *

الباب الثالث

فى الفرق بين مايرى العقل ومايرى الهوى

إعلم أن الهوى يدعو إلى اللذة من غير فكر فى عاقبته ، وقد يعلم أن تلك اللذة تجلب ألماً يربو عليها وتمنع صاحبها نيل أمثالها ، والهوى معرض عن النظر فى ذلك ، وتلك حالة البهائم ؛ إلا ان البهائم أعذر ، لأنها لا ترى العاقبة ، ولا ينبغى للعاقل أن ينزل عن رتبة بها شرف وارتفع إلى مقام من حط ، فأما العقل فإنه يراقب العواقب وينظر فى المصالح فمثله كمثل الرجل الحازم والطبيب الناصح .

ومثل الهوى كمثل الصبى الجاهل والمريض الشره ، فينبغى للبيب إذا اختلف عقله وهواه ، وقد علم أن العقل عالم ناصح ، أن يستشيره ، أن يصبر على مضض مايأمر به ، ويكفيه فى إيثار العقل علم بفضله . فإن رام زيادة دليل على صحة قوله فليتأمل عواقب مايجنيه الهوى على أربابه من هتك الأستار والفضيحة بين الخلق وحط المنزلة وفوت الفضائل ، وهل وكس جاه أو ذل عزيز أو صيد طائر إلا بموافقة الهوى ؟ ومما يوضح له الدليل أن يقدر بلوغ غرضه قبل نيله ، ثم ينظر فى حاله بعد انقضاء لذته وما اكتسبه ويزن الإلتذاذ بالجناية فيعلم حينئذ أنه قد خسر أضعاف ماربح وقد أنشدوا فى ذلك :

كم لذة مستفزة فرحاً ... قد انجلت عن غموم آفات
كم شهوات سلبن صاحبها ... ثوب الديانات والمروءات

واعلم أن الإنسان إذا وافق هواه وإن لم يضره وجد من نفسه ذلاً لمكان أنه مغلوب ء وإذا قهر هواه وجد فى نفسه عزاً لأجل أنه غالب ، ثم أنت ترى الناس إذا شاهدوا زاهداً تعجبوا منه وقبلوا يده وماذاك إلا لأنه قوى على ترك ماضعفوا عنه من مخالفة الهوى .

الباب الرابع
فى دفع العشق عن النفس

هذا مرض قد تلف به خلق كثير تارة فى أبدانهم وتارة فى أديانهم وتارة فيهما . ولأجله وضعت كتاب « ذم الهوى » وقد ذكرت هناك من الأدوية مايكفى ويشفى ، إلا إنى أذكر ههنا جملة لئلا يخلو الكتاب مما قد رسم فيه ؛ فأقول من احتمى عن التخليط بغض البصر وكف النظر سلم من هذا المرض ؛ فإذا لم يحتم حصل عنده من المرض بمقدار تخليطه ، فإن تدارك الأمر قبل استحكامه فربما نفع الدواء وإن تركه إلى أن يستحكم لم ينفعه علاج . واعلم أن مجرد النظر إلى المستحسن لايكاد يوجب العشق ، وإنما يزداد النظر يحصله ويعينه قوة الطمع ، فيساعده الشباب والشهوة ، فمن أراد العلاج فليبادر به قبل أن يستحكم المرض وذلك بقطع السبب والصبر فى ذلك على المضض ، فإن البأس أعظم دواء ، وأقوى معين على ذلك خوف الله تعالى وزجر النفس الأبية عن مواقف الذل وتذكر عيوب المحبوب الباطنة كما قال ابن مسعود : إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مثالبها (١) .

ومتى كان المحبوب مقدوراً عليه مباحاً كان الجمع بينهما أعظم الدواء ، وإلا فالنكاح فى الجملة يخفف المرض ، واستجداد الزوجات واستحداث الجوارى وطول السفر والتفكر فى خيانة المحبوب وتجنيه ، والنظر فى كتب الزهد وذكر الموت وعيادة المرضى وزيارة القبور . ثم يتفكر فى وجود غرضه وانقضائه وسآمته مع الزمان وتغير . الخلق وليتصفح العبر فى نفسه وغيره فلعل غيره يأخذ بيده فينتاشه من هذه الهوة ويجتذبه من هذه الورطة .

---

(١) قال الزبيدى فى تاج العروس :
المثالب : هى العيوب ، ومثالب الأمير والقاضى معايبه

كما روينا أن رجلاً كان يهوى غلاماً فنظر يوماً فى المرآة فرأى طاقة شيب فهجر الغلام فكتب الغلام إليه :

مالى جفيت وكنت لا أجفى ودلائل الهجران لا تخفى
وأراك تشربنى فتمزجنى ولقد عهدتك شاربى صرفاً

فكتب إليه فى الجواب :

أتَصَابى مع الشمط سمتنى خطة شطط
لاتلمنى على جفا ى فحسبى بما فرط
أنا رهـن بما جنيـ ـت فذرنى من الغلط
قد رأينا أبا الخلا ئق فى ذلة هبط

* * *

الباب الخامس
فى دفع الشره

اعلم أن الشره إذا أطلق انصرف إلى موافقة الهوى فى المطاعم . وكم قد أوجبت من أمر فزالت بأربابها إلى التلف وهى علة لتولد عن قوة النفس الشهوانية .

قال الحارث بن كلدة [١] الذى قتل البرية وأهلك السباع فى البرية ادخال الطعام على الطعام .

وقال غيره لو قيل لأهل القبور ماكان سبب آجالكم لقالوا التخم .

وساق بسنده إلى الحسن قال قيل لسمره إن ابنك لم ينم الليلة قال أبشما [٢] قيل بشماً قال لو مات لم أصل عليه .

البشم فى الطعام والبغر فى الماء .

قال رجل لرجل يعيره مات أبوك بشماً وماتت أمك بغراً .

وعن عقبة الراسبى قال دخلت على الحسن فوافقته يتغدى فقال هلم فقلت أكلت حتى لا أستطيع أن آكل ، فقال سبحان الله ويأكل المسلم حتى لايستطيع أن يأكل ؟

---

(١) الأعلام للزركلى ١٥٧/٢ : الحارث بن كلدة الثقفى ، طبيب العرب فى عصره ، وأحد الحكماء المشهورين من أهل الطائف ، رحل إلى بلاد فارس رحلتين ، فأخذ الطب عن أهلها ، مولده قبل الإسلام ، وبقى أيام رسول الله ﷺ وأيام أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية ، واختلفوا فى إسلامه وكان النبى ﷺ يأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده له كلام فى الحكمة وكتاب « محاورة فى الطب » بينه وبين كسرى أنوشروان .

(٢) تاج العروس ٢٠٢/٨ : البشم أن يكثر من الطعام حتى يكربه وفى حديث الحسن :

وأنت تتجشأ من الشبع بشماً

وفى حديث سمرة بن جندب : وقيل له إن ابنك لم ينم البارحة بشماً قال : لو مات ماصليت عليه .

فصـــل

واعلم أن العاقل يجب أن يأكل ليبقى ، والجاهل يؤثر أن يبقى ليأكل ، ورب لقمة منعت لقمات وكانت سبب الهلاك ، وقد بينت عيوب الشبع فى كتاب « لقط المنافع » . وإنما المقصود ههنا زجر النفس الشرهة لتكف الكف عما يؤذيها . وفيما ابتدأت به من ذكر فضل العقل وذم الهوى مايكفى فى الامتناع من كل رذيلة وهجر مايخاف عواقبه .

فصـــل

وقد يكون الشره فى الجماع ؛ وقد بينت فى كتاب « اللقط » أنه كلما كثر استعماله امتنعت أوعية المنى فانجذب إليها غذاء ليس بنضيج ، واستلبت قوى الأصول وهى الدماغ والقلب والكبد ، فتبرد الحرارة الغريزية ، ويسرع لذلك الهلاك . ثم إن صورة الوطىء تنبو عنها النفوس الشريفة إلا أن يُدفع شر محتقن أو يُطلب ولد ، فإما أن يصير عادة يكون بالتمتع بنفس الفعل فتلك مزاحمة البهائم .

فصـــل

وقد يقع الشره فى جمع المال وهو من الجنون البارد إذا زاد على قدر الحاجة ، لأن المال لايراد لنفسه وإنما يراد لغيره ، ولا ينكر على من جمع مالاغنى للنفس عنه ، فاستغنى به عن الناس ، وأغنى أولاده ، وبذل بعضه للمحتاجين ، إلا أنه ينبغى للعاقل بعد حصول المقدار والمتوسط من ذلك أن لا يضيع الزمان الشريف ، وأن يخاطر بالروح التى لا قيمة لها ، فى الأسفار وركوب البحار وما أحسن قول الشاعر :

ومن ينفق الأيام فى جمع ماله   مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وكم قد رأينا وسمعنا عن أقوام يقترون على أنفسهم فى الإنفاق ، ويركبون مع كبر السن البحار ليربحوا بزعمهم فهلكوا فى اسفارهم ، وما بلغوا بعض أغراضهم ؛ وهذا المرض ينبغى أن يداوى بتلمح المقصود من المال ، والموازنة بين حصوله وبين المخاطره بأنْفَسَ نَفيس وهى النفس والوقت ، فمن شاور عقله فهم المراد ، ومن غلبه مرض الحرص هلك فى بيداء الشره ، ولا وارث إلا المطية والرحل .

فصـــل

وقد يقع الشره فى فنون ما يلتذ به من الأبنية المنقوشة ، والخيل المسومة ، والملابس الفاخرة ، وغير ذلك ، وهذا مرض أصله موافقة الهوى ، وعلاجه أن يعلم أن الحساب على كسب الحلال ، شديد عزيز ، والتبذير ممنوع منه ، وأن الله تعالى لا ينظر إلى من جر ثوبه خيلاء ، وأن كل شيء يؤجر المؤمن عليه إلا البناء ، فالعاقل من نظر فى مقدار إقامته ، وتلمح بيت نقلته ، فحينئذ يقنع من الثياب بما يواريه ، ومن البنيان مايؤويه .

وفى الحديث أن نوحاً عليه السلام لبث فى بيت شعر ألف سنة إلا خمسين عاما . وأن رسول الله ﷺ ماوضع لبنة على لبنة . وكان فى ثوب عمر إثنا عشر رقعة فهؤلاء فهموا أن الدنيا مفازة والمفازة لا تتوطن ، فمن فاته العلم بهذا مرض مرض الشره ، وعلاجه النظر فى العلم ، والتأمل بسير العلماء العقلاء .

* * *

الباب السادس
فى رفض رياسة الدنيا

اعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على جنسها فتؤثر ، الإمارة والولاية لمكانة الأمر والنهى ، وهذا وإن كان مطلوباً إلا أن فيه مخاطرات أقلها العزل بعد الولاية ، وأعظمها الجور فى الحكومة ، وأوسطها تضييع الزمان إذا لم تصح للوالى نية .

وينبغى لمن أحب الولاية أن يعلم أنه إنما يتخايلها عظيمة ما لم ينلها ، فإذا نالها هانت عنده ، وسما إلى غيرها ، فاللذة تزول ، والأوزار تبقى ، والمخاطرة بالنفس والدين ، فالتفكر فى هذه الأشياء علاج .

بسنده إلى أبي أمامة عن النبى ﷺ قال « مامن رجل يلى أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى الله عز وجل يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه فكه بره أو أوبقه إثمه أولها ملامة وأوسطها ندامة وآخرها خزى يوم القيامة [١] » .

بسنده إلى أبى هريرة مرفوعاً « ويل للأمراء ويل للعرفاء ويل للأمناء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا على شىء » [٢] .

وفى « افراد مسلم » من حديث أبى ذر قال قلت يارسول الله ألا تستعملنى قال فضرب بيده على منكبى ثم قال « يا أبا ذر إنك ضعيف

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٢٠٤/٨ ، وأحمد ٢٦٧/٥ وابن عساكر ٣٥٦/٥ ، والشجرى ٢٢٦/٢ .

وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٠٤/٥ ، رواه أحمد والطبرانى وفيه يزيد من أبى مالك وثقه ابن حبان وغيره وبقية رجاله ثقات .

(٢) أخرجه أحمد ٣٥٢/٢ ، البيهقى ٩٧/١٠ وابن عساكر ١٧١/٦ .

وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلاَّ من أخذها بحقها وأدّى الذى عليه فيها » [١] .

وفى لفظ آخر « يا أبا ذر إنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » [٢] .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم الإمارة (١٦) رقم ١٨٢٥ .

(٢) أخرجه مسلم الإمارة ١٦ بلفظ « يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمَّرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » .

الباب السابع
فى دفع البخل

اعلم أن مجرد الإمساك للمال لا يسمى بخلاً ، لأن الإنسان قد يمسك فاضل المال لحاجته ، ولحوادث دهره ، ولأجل عياله وأقاربه ، وهذا كله من باب الحزم ، فلا يذم ، وقد يجد قوم قوة فى النفس بحفظ المال ، وإنما يقع اسم البخل على مانع الحق الواجب ، قال ابن عمر من أدى الزكاة فليس ببخيل ، ثم يقال لمن منع مالا يضره ولا يكاد يؤثر فيه مما ينتفع به الناس بخيل .

وقد قال النبى ﷺ « وأى داء أدوأ من البخل » (١) .

قال أبو محمد الرامهرمزى : إنما يشبه البخل بالداء لأنه يفسد الخلق ويدفع عن السؤدد ويكسب سوء الثناء والمذمة كما أن الداء يضعف الجسم ويبطل الشهوة ويغير اللون .

وقد قالت الحكماء :

الكريم حر لأنه يملك ماله والبخيل لا يستحق اسم الحرية لأن ماله يملكه .

وبسنده عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال « إياكم

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢١٩/٣ ، ١٦٣/٤ و ١٦٤ والبخارى فى الأدب المفرد ٢٩٦ . وعبد الرزاق فى مصنفه (٢٠٧٠٥) . والطبرى فى التفسير ١٠٤/١٠ . وأحمد ٣٠٧/٣ و ٣٠٨ من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما .

والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا » (١) .

وقال عليه السلام « خصلتان لاتجتمعان فى مؤمن البخل وسوء الخلق » (٢) .

قال الخطابى الشح أبلغ من البخل فهو بمنزلة الجنس والبخل بمنزلة النوع .

وقال بعضهم البخل أن يضن بماله والشح أن يبخل بماله ومعروفه .

وقال بشر الحافى لقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين . وعلاج البخل أن يتفكر ، فيرى أن فقراء بنى آدم إخوانه ، وقد أوثر عليهم وأحوجوا إليه ، فليجعل شكر المنعم مواساة الإخوان ، ولينظر فى شرف الكرم ، وليعلم أنه يسترق الأحرار إذا أسدى إليهم معروفا ، وينهب عرضه الأشرار إذا بخل ، وليتيقن أنه سيترك مافى يديه ذميما ، فليخرج منه قبل أن يخرج عنه .

---

(١) أخرجه أحمد ١٦٠/٢ و ١٩٥ ، أبو داود ١٦٩٨ عن عبد الله بن عمرو قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح ؛ أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا .

وقال الخطابى : الشح أبلغ فى المنع من البخل وإنما الشح بمنزله الجنس والبخل بمنزلة النوع ، وأكثر مايقال فى البخل إنما هو فى إفراد الأمور وخواص الأشياء ، والشح عام وهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجِبِلَّة .

وقال بعضهم البخل أن يضق بماله والشح أن يبخل بماله وبمعروفه .

والفجور ههنا الكذب وأصل الفجور الميل والانحراف عن الصدق ويقال للكاذب قد فجر أى انحرف عن الصدق اهـ .

(٢) أخرجه الترمذى (١٩٦٢) وأبو نعيم فى الحلية ٣٨٩/٢ من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

الباب الثامن
فى النهى عن التبذير

التبذير مما يأمر به الهوى وينهى عنه العقل ، وأحسن الأدب فى هذا الباب تأديب الحق سبحانه وتعالى حين قال : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء / ٢٦] الآية

واعلم أن الإنسان قد يعطى رزق شهر فى يوم فإذا بذر فيه بقى شهراً يعانى البلاء ، وإذا دبر فيه عاش شهراً طيب العيش .

وعلاج مرض التبذير النظر فى العواقب ، والحذر مما يجوز ، كونه من الحاجة إلى الناس والفقر فذلك يكف كف التبذير .

* * *

الباب التاسع
فى بيان مقدار الاكتساب والإنفاق

فينبغى للعاقل أن يكتسب أكثر مما يحتاج إليه ، ويقتنى مايعلم أنه لو حدث به حادثة كان فى المقتنى عوض عما ذهب ، ولو عرض له مانع من الاكتساب قام المقتنى بحاجته بقية عمره ، ولو جاءه أولاد واحتاج إلى فضل زوجة وخادم واحتاج ولده إلى مثل ذلك كان فى كسبه مايكفيه ، وفى الجملة ينبغى أن تكون النفقة أقل من الكسب ، ليقتنى من الفضل مايكون معداً لحادثة لا تؤمن ، وهذا ما يأمر به العقل الناظر فى العواقب ، ولا يبالى به الهوى الناظر إلى الحالة الحاضرة .

وساق بسنده إلى أبى الدرداء مرفوعاً « من فقه الرجل بعد النظر فى معيشته » [(١)] .

وقد روى موقوفاً .

* * *

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ٢١١/١ عن أبى الدرداء موقوفاً .

الباب العاشر
فى ذم الكذب

هذا من العوارض التى يدعو اليها الهوى . وذلك أن الإنسان لمحبته الرياسة يؤثر أن يكون مخبراً معلماً لعلمه بفضل المخبرِ على المخبَر .

وعلاج هذا المرض أن يعلم عقوبة الله للكاذب ، وأن يتيقن أنه مع استدامة الكذب لابد أن يطلع على حاله ، فينقص نقصاً لا يتلافى ، فيربو حياؤه وخجله واحتقار الناس له وتكذيبهم إياه فى الصدق وقلة ثقتهم به على ما اكتذبه .

بسنده عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : « مايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (١) وقال ابن مسعود : كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب (٢) .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم البر والصلة (١٠٥) .

(٢) الشفا ٢١٥/١ . الإتحاف ٥١٨/٧ .

وضعف البيهقى رفع الحديث وقال الدارقطنى الموقوف أشبه بالصواب .

الباب الحادى عشر
فى دفع الحسد

الحسد تمنى زوال نعمة المحسود ، وإن لم يصر للحاسد مثلها . وسبب ذلك حب الميزة على الجنس ، وكراهة المساواة . فإذا حصلت للغير نعمة تميز بها تألم هذا الإنسان لتلك الميزة أو بمساواته له فيها ؛ فلا يزيل ذلك الألم إلا زوال تلك النعمة عن المحسود ، وهذا أمر لا يكاد أحد ينفك منه فى باطنه ، ولا يأثم الإنسان بوجود ذلك بل يأثم بالتمنى لزوال النعمة عن أخيه المسلم .

واعلم أن الحسد يوجب طول السهر ، وقلة الغذاء ، ورداءة اللون ، وفساد المزاج ، ودوام الكمد .

قيل لأعرابى عاش مائة وعشرين سنة ما أطول عمرك ؟ فقال : تركت الحسد فبقيت .

واعلم أنه لايقع الحسد إلا فى أمور الدنيا ؛ فإنك لاترى أحداً يحسد قوام الليل ولا صوام النهار ، ولا العلماء على العلم بل على الصيت والذكر .

وعلاج هذا المرض أن يعلم الإنسان أولاً أن الأقدار السابقة لابد أن تجرى ، وأن الاحتيال فى صرف المقدور غير ممكن ، وأن القسام حكيم ، ثم هو مالك ؛ يعطى ، ويحرم ، فهو الذى خلق الطرف السابق والكودن . وكأن الحاسد مضاد لإرادة المعطى سبحانه ؛ وقال بعض الحكماء :

ألا قل لمن كان لى حاسداً   أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى فعله   لأنك لم ترض لى ماوهب
فجازاك عنى بأن زادنى   وسد عليك وجوه الطلب

ثم إن المحسود لم ينقص الحاسد من رزقه ، ولم يأخذ شيئاً من

يده ، فقصد الحاسد زوال ما أعطيه ظلم محض . ثم ينبغى للحاسد أن ينظر فى حال المحسود ، فإن كان إنما نال الدنيا فقط ، فهذا ينبغى أن يرحم ؛ لا أن يحسد ، لأن الذى ناله فى الغالب عليه ، لا له ، وهل فضول الدنيا إلا هموم كما قال المتنبى :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته   ماقاته وفضول العيش أشغال

وبيان هذا ، أن الكثير المال شديد الخوف عليه ، والكثير الجوارى شديد الحذر عليهن ، قوى الاهتمام بهن ، أو لهن ، والوالى خائف من العزل . ثم ليعلم أن النعم كثيرة الأكدار ، ثم هى قليلة اللبث ، والمصائب تردفها ، فإن صاحب النعمة ينتظر زوالها ، أو زواله عنها ، ثم ليوقن أن مايحسد عليه المحسود ليس هو عند المحسود كما هو عند الحاسد ، فإن الناس يظنون فى أرباب المناصب أنهم فى غاية اللذة ، ولا يدرون أن الإنسان يسمو إلى أمر فإذا ناله برد عنه وصار عادة لهو ، فهو يسمو إلى ماهو أعلى منه . وهذا الحاسد يرى الأمر بعين الجدة والغبطة . وليعلم الحاسد أنه لو عاقبه المحسود لما ناله بأشد من الأذى الذى هو فيه ، فإن لم ينتفع بشىء من هذا العلاج فليسع فى التسبب إلى مثل مانال المحسود .

فقد قال بعض السلف : لقد خشيت الهم حتى فى الحسد ، فإن الرجل إذا حسد جاره على الغنى سافر وتاجر ليصير مثله ، أو على العلم سهر وتعلم ، فقد صار الناس يحبون البطالة ، ثم يذمون الواصل إلى المعالى ، وما أحسن ماقال الرضى :

ذنبى إلى البهم الكوادن أننى الطـ   ـرف المطهم والأغر الأقرح

يولوننى خزر العيون لأننى   غلست فى طلب العلى وتصبحوا

وجذبت بالطِوَل الذى لم يجذبوا   ومتحت بالغرب الذى لم يمتحوا

لو لم تكن لى فى العيون مهابة   لم يطعن الأعداء فىَّ ويقدحوا

فإن لم ينل مانال المحسود فلتكن مجاهدته إمساك لسانه عن ثلبه ، وحبس مافى قلبه .

فصــــل

وقد جاءت الأحاديث بذم الحسد بسنده إلى الزبير بن العوام ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ؛ والبغضاء هى الحالقة ؛ حالقة الدين لا حالقة الشعر ، والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم » (١) .

وبسنده قال عمر بن ميمون (٢) رأى موسى عليه السلام رجلاً عند العرش فغبطه بمكانه ، فسأل عنه فقال نخبرك بعمله لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ولا يمشى بالنميمة ولا يعق والديه .

وبسنده إلى سالم عن أبيه ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله عز وجل القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه فى الحق آناء الليل والنهار » (٣) أخرجاه فى الصحيحين .

---

(١) أخرجه أحمد ١٦٥/١ و ١٦٧ ، والبيهقى ٢٣٢/١٠ والبغوى فى شرح السنة ٢٥٩/١٢ ، والترمذى (٢٥١٠) .

(٢) عمر بن ميمون ؛ قال الحافظ فى التقريب : هو ابن بحر بن سعد بن الرماح البلخى أبو على القاضى ثقة وعمى فى آخره من السابعة روى له الترمذى .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى ١٣٤/٢ ، ٧٨/٩ و ١٢٦ ؛ ومسلم ص ٥٥٩ .

الباب الثانى عشر
فى دفع الحقد

الحقد بقاء أثر القبيح من المحقود فى نفس . ولعمرى إن العقل يقضى ببقاء أثر القبيح كما يقضى ببقاء أثر الجميل .

وبسنده إلى عبد الله بن كعب ابن مالك ، قال سمعت كعب بن مالك يحدث فى حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فذكر القصة ونزول توبته ، قال فدخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلىّ طلحةُ بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ماقام إلى رجل من المهاجرين غيره ، قال فكان كعب لا ينساها لطلحة . أخرجاه فى الصحيحين [١] .

فإذا ثبت أن الجميل لا ينسى ، فالقبيح كذلك ، إلا أنه يستحب الاجتهاد فى إزالة أثر القبيح من القلب . وعلاج ذلك أن يكون بالعفو والصفح وللعفو محلان : أحدهما رؤية الثواب للعافى . والثانى شكر من جعل هذا فى مرتبة من يعفو ، وذلك فى منزلة من يهفو . ومن كمال العفو حصول الرضا وذلك بمحو مافى القلب .

وههنا علاج أدق من هذا ، وهو أن يرى الإنسان أن الذى سُلط عليه لأذاه إنما هو بذنب منه أو لتكفير خطأ ، أو لرفع درجة ، أو لاختباره فى صبره . وثم علاج أدق من هذا وهو أن يرى الأشياء من المقدر .

---

(١) أخرجه البخارى ٤/٦ ، ومسلم التوبة ٥٣ .

الباب الثالث عشر
فى دفع الغضب

لقد بينا أن الغضب إنما ركب فى طبع الآدمى على دفع الأذى عنه والانتقام من المؤذى له ، وإنما المذموم إفراطه ؛ فإنه حينئذ يزيل التماسك ، ويخرج عن الاعتدال ، فيحمل على تجاوز الصواب وربما كانت مكانته فى الغضبان أكثر من مكانته فى المغضوب عليه . والغضب حرارة تنتشر عند وجود مايغضب ، فيغلى عندها دم اللذات طلباً للإنتقام ، وربما أثر الحمى . وسببه فى الغالب الكبر ، فإن الإنسان لايغضب على من هو أعلى منه . وعلاجه أولاً أن يتثبت الغضبان ، ويغير حاله ؛ فإن كان ناطقاً سكت ، وإن كان قائماً قعد ، وإن كان قاعداً اضطجع ؛ ليسكن تلك الفورة . وإن خرج فى الحال عن المكان وبعد عن المغضوب عليه كان أصلح ، ثم يتفكر فى فضل كظم الغيظ ، فقد مدح الله سبحانه القوم فقال ﴿ والكَاظِمِينَ الْغَيْظَ والْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ فإن رأى ما سلط عليه بذنبه ، أو شاهد قدرة المسلط على ماذكرنا فى الحقد هان الأمر .

فصـــل

وقد جاء فى هذا أحاديث ؛ فذكر بسنده إلى أبى هريرة قال : « أتى النبى ﷺ رجل فقال أوصنى ، قال : لا تغضب ، فردد مراراً قال لا تغضب » رواه البخارى (١) .

وقال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصُّرَعَة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » أخرجاه (٢) .

---

(١) أخرجه البخارى ٣٥/٨ (الأدب) .

(٢) أخرجه البخارى ٣٤/٨ ، ومسلم ص ٢٠١٤ .

وأخرجا من حديث سليمان بن صرد قال كنت جالساً مع النبى ﷺ ورجلان يستبان ، وأحدهما قد احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبى ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه مايجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه مايجد » (١) فقالوا له إن النبى ﷺ قال : نعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال أوَبى جنون .

وروى أبو داود فى « سننه » من حديث أبى ذر عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب ، وإلا فليضطجع » (٢) .

قال الخطابى القائم متهىء للحركة والبطش والقاعد دونه فى هذا المعنى .

وفى حديث ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا غضب أحدكم فليسكت » وقال الأحنف : ما اعترض التثبت فى الغضب إلا وَهى شيطان العجلة .

فصــــل

ومتى لم يسكن الغضبان عند شدة فورته لم يؤمن أن تبدر منه

---

(١) أخرجه البخارى ٣٥/٨ ، ومسلم البر والصلة ١٠٩ . وكان فى المطبوعة عن سلمان والصحيح سليمان .

(٢) أبو داود فى الأدب باب (٤) [٤٧٨٢] ، أحمد ١٥٢/٥ . وشرح السنة ١٦٢/٣ ، موارد الظمآن ١٩٧٣ . وقال البغوى قيل إنما أمره بالقعود والاضطجاع لئلا يحصل منه فى حال غضبه مايندم عليه فإن المضطجع أبعد فى الحركة والبطش من القاعد والقاعد من القائم .

نكاية يندم عليها إما فى نفسه أو فى المغضوب عليه ، فكم ممن غضب فقتل وجرح أو كسر عضو ولده ثم بقى الدهر نادماً على مافعل . ومنهم من ينكأ فى نفسه ، فإن رجلاً غضب مرة فصاح فنفث الدم فى الحال ، وأدى به الأمر إلى الهلاك ، فمات ولكم رجل رجلاً فانكسرت أصابع اللاكم ولم يستضر الملكوم .

ومن العلاج أن يتصور الغضبان حاله عند الغضب ، ثم يتصور حاله عند السكون ، فحينئذ يعلم أن حالة الغضب حالة جنون وخروج عن مقتضى العقل . ومتى لم ينثن عزم الغضبان عن ضرب المغضوب عليه فاستقر وغير ذلك ووعد نفسه بالفعل بشرط التثبت ، فإنه إذا حصل التثبت رأى قبح ماعزم عليه ، فترك .

فصـــل

وقد كان السلف إذا غضبوا ، غفروا وصفحوا طلباً لفضيلة العفو ، وكظم الغيظ . ومنهم من يرى السبب فى إغضابه ذنوب نفسه . ومنهم من يرى أنه مختبر . إلى غير ذلك مما ذكرناه فى باب الحقد .

وفى بعض كتب الله تعالى « ياابن آدم اذكرنى إذا غضبت أذكرك إذا عصيت فلا أمحقك مع من أمحق وإذا ظلمت فارض بنصرتى فإن نصرتى خير لك من نصرتك لنفسك » .

وقال مورق ماتكلمت بكلمة فى الغضب فندمت عليها فى الرضا . وكان ابن عون لايغضب فإذا أغضبه الرجل قال بارك الله فيك .

فصـــل

ولا ينبغى للغضبان على الشخص أن يعاقبه فى حال غضبه ، وإن كان مستحقاً للعقوبة ؛ بل يمهل حتى يسكن الغضب ، لتكون العقوبة بمقدار الإساءة ، لا بمقدار الغضب .

أتى عمر بن عبد العزيز برجل كان واجداً عليه فقال : لولا أنى غضبان لضربتك ثم خلى سبيله .

* * *

الباب الرابع عشر
فى دفع الكبر

الكبر تعظيم شأن النفس واحتقار الغير وذلك يكون بسبب الترفع على من هو دونه إما فى النسب أو المال أو العلم أو العبادة أو غير ذلك . وعلامة الكبر الأنفة ممن يتكبر عليه ، والاختيال والفخر ومحبة تعظيم الناس له . وعلاج ذلك نوعان : جملى وتفصيلى ؛ فأما الجملى : فنوعان علمى وعملى ، فالعلمى ، فى الأدلة السمعية والعقلية على رذائل الكبر ، وأما العملى فصحبة المتواضعين وسماع اخبارهم ، وأما التفصيلى فإن ينظر إلى رذائل النفس ، وأن يعلم أن مايتكبر به ، إن كان مالاً فهو مأخوذ منه عن قريب ، والفضل إنما يكون فى الغنى عن الشىء لا به ، لأن الغنى بالشىء فقير إليه ، وإن كان علماً فقد سبقه خلق كثير أعلم منه ، ثم علمه ينهاه عن حالته ، فهو حجة عليه ، كذلك إن كان عملاً تم رؤيته للعمل بعين التمام نقيصة .

فصـــــل

ذكر بسنده إلى أبى سلمة ، قال : إلتقى عبد الله بن عمرو وابن عمر على المروة ، فنزلا فتحدثا ، ثم مضى عبد الله بن عمرو ، وقعد ابن عمر يبكى ، فقيل له مايبكيك فقال هذا (يعنى عبد الله بن عمرو) زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كبه الله تعالى فى النار على وجهه [١] .

---

(١) أخرجه البيهقى ١٠/١٩١ . وعزاه الهيثمى فى المجمع ١/٩٨ للطبرانى فى الكبير وأحمد وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح .

وبسنده إلى إياس بن سلمة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب من الجبارين حتى يصيبه ما أصابهم » [(١)] .

وفى افراد مسلم من حديث ابن مسعود ، عن النبى ﷺ إنه قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال الرجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة قال إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس » [(٢)] .

وفى افراده من حديث الأغر عن أبى هريرة وأبى سعيد ، قالا : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : العز إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما عذبته » [(٣)] .

قال الخطابى ومعنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله اختص بهما لايشركه فيهما أحد ولا ينبغى لمخلوق أن يتعاطاهما ، لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل ، وضرب الرداء والإزار مثلاً يقول والله أعلم كما لا يشرك الإنسان فى إزاره وردائه فكذلك لا يشركنى فى الكبرياء والعظمة مخلوق .

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٠٠٠) والبغوى فى شرح السنة ١٦٧/١٣ والديلمى (٧٥٧٦)

والحديث فى اسناده عمر بن راشد وهو ضعيف .

(٢) أخرجه مسلم ٩٣/١ .

(٣) أخرجه مسلم البر والصلة (١٣٦) بلفظ العز إزارُهُ والكبرياء رداؤه فمن ينازعنى عذبته .

قال وقوله : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر يتأول على وجهين أحدهما أنه كبر الكفر ، والثانى أنه ينزع الكبر من قلوب أهله قبل دخولهم الجنة ، وقوله وغمط الناس أنه أزرى بهم واستخف بهم ، ويقال غمط وعمص . وبسنده إلى الحسن قال تراهم يهدرون عند هدير الفحل أنت والله أنت والله وتراه مقنعاً ساكتاً يحسب حميق أنه مثل مايقال له ، قال وترى أحدهم يتخزل فى مشيته يسحب عظامه عظماً عظماً لايمشى طبيعة .

* * *

الباب الخامس عشر
فى دفع العجب

العُجْب إنما ينشأ من حب النفس . والمحبوب لاترى زلته ولا يعتقد نقصه ، بل يرى بعين الكمال ومن بلايا العجب أنه يؤدى إلى بغض الأمر الذى به وقع العجب ، لأن المعجب بنفسه فى أمر لايتزيد منه ، ثم يترقى إلى أن يعيب غيره فى الاعتقاد والنقص فى سواه . وعلاج العجب البحث عن عيوب النفس على مابينا آنفاً ، وسؤال الغير عن قبائحها ومعايبها ، والنظر فى أحوال من سبقه ، إلى ما أعجب به وبرز عليه ، فإن عجب العالم بعلمه فلينظر فى سير العلماء أو بزهده ، فلينظر فى سير الزهاد ، فحينئذ لايعد نفسه .

فقد كان الإمام أحمد يحفظ ألف ألف حديث .

وكان كهمس بن الحسن يختم كل يوم وليلة ثلاث مرات .

وصلى سلمان التيمى الفجر بوضوء العتمة أربعين سنة .

ومن تأمل سير القوم رأى نفسه فيما حصل بالإضافة إليهم كمن معه دينار يعجب به ولا يدرى أن فى الدنيا من يملك ألوفاً كثيرة .

وبسنده قال ابراهيم الخواص العُجْب يمنع من معرفة قدر النفس .

وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله وما أضر العجب بالمجلس .

* * *

الباب السادس عشر
فى دفع الرياء

من عرف الله تعالى حق معرفته أخلص له عمله . وإنما يقع الرياء من قلة المعرفة له ، وتعظيم قدر الحق ، وإيثار النفس مدحهم ، وحمدهم والناس فى هذا المرض متفاوتون ؛ فمنهم من لايقصد بعمله إلا مدح الخلق له ، ومنهم من يريد الله بعمله ، ويريد مدح المخلوقين ، ومنهم من لا يقصد الخلق أصلاً ، فإذا اطلعوا عليه حسن العمل وجوده ليمدح ، فهذه آفة دخلت على عمل صحيح . وعلاج هذا المرض فى الجملة تحقيق معرفة الله سبحانه ، فمن عرفه أفرد القصد له ، ولم ير غيره ، وأقام نفسه فى مقام العابد الذليل للمعبود ؛ لا فى مقام معبود ممدوح ، ورأى أن حصول الأجر إنما يكون بخالص العمل ، فاحترس من تعب ضائع .

والعقوبة على الرياء شديدة .

بسنده حديث عمر بن الخطاب : « إنما الأعمال بالنية وإنما لكل امرىء مانوى » (١) .

وبسنده إلى أبى موسى ، قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله أرأيت أن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً فأى ذلك فى سبيل الله ، قال : فقال رسول الله ﷺ « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » متفق (٢) عليها .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى ٢/١ و ١٧٥/٨ و ٢٩/٩ ، ومسلم الإمارة (١٥٥) .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى ٤٣/١ و ٢٥/٤ و ١٠٥ ، ١٦٦/٩ ، ومسلم الإمارة (١٤٩و١٥٠و١٥١) .

وبسنده إلى أبى هريرة ، قال له ناتل الشامى : أيها الشيخ حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها قال قاتلت فيك حتى قتلت قال كذبت ولكنك قتلت ليقال هو جرىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها قال تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت القرآن فقال كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها قال ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » (١) انفرد بإخراجه مسلم .

وبسنده إلى أبى هريرة عن النبى ﷺ يرويه عن ربه عز وجل « قال انا خير الشركاء فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو للذى أشرك » (٢) أخرجه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم الإمارة (١٥٢) .

وفى المطبوعة قائل الشامى وهو خطأ والصحيح ناتل الشامى قال النووى فى شرح مسلم ٥٦٨/٤ : هو ناتل بن قيس الحزامى الشامى من أهل فلسطين وكان أبوه صحابياً وكان ناتل كبير قومه .

وقال النووى فى هذا الحديث إن العموميات الواردة فى فضل الجهاد إنما هى لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصا وكذلك الثناء على العلماء والمنفقين فى وجوه الخيرات كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصاً .

(٢) مسلم الزهد ٤٦ ، أحمد ٣٠١/٢ ، ابن خزيمة (٩٣٨) ، ابن ماجه الزهد ٢١ .

وبسنده إلى محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟! قال : الرياء يقول الله تعالى لهم يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم ذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً » (١) .

وبسنده إلى أبى حازم قال لا يحسن عبد فيما بينه وبين العباد ولا يعور فيما بينه وبين الله إلاّ عوَّرَ الله مابينه وبين العباد ، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها ، إنك إن صانعت هذا الوجه مالت إليك الوجوه كلها وإذا أفسدته شنأتك الوجوه كلها (٢) .

وبسنده إلى ابن توبة أبى جعفر عبد الله قال رأيت أبابكر الأدمى القارىء فى النوم بعد موته بمد يده فقلت له مافعل الله بك فقال وقفنى بين يديه وقاسيت شدائد وأمورا صعبة فقلت له فتلك الليالى والمواقف والقرآن فقال ماكان شىء أضر على منها لأنها كانت للدنيا فقلت فإلى أى شىء انتهى أمرك قال قال لى تعالى آليت على نفسى أن لا أعذب أبناء الثمانين .

---

(١) أخرجه أحمد ٤٢٨/٥ .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ٢٣٩/٣ من طريق أحمد بن حنبل عن على بن عياش عن محمد بن مطرف عن أبى حازم ، قال لايحسد عبد فيما بينه وبين الله تعالى إلا أحسن الله فيما بينه وبين العباد ، ولا يعور فيما بينه وبين الله تعالى إلا عوّر الله فيما بينه وبين العباد ، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها : إنك إذا صانعت الله مالت الوجوه كلها إليك وإذا أفسدت مابينك وبينه شنأتك الوجوه كلها .

وكان فى المطبوعة شنعتك وحددناها من الحلية .

الباب السابع عشر
فى دفع فضول الفكر

اعلم أن الفكر يراد لاستدراك فارط ، والنظر فى مصلحة مستقبلة ؛ فإذا كان فيما لا يثمرهما كان ضرراً ، وإذا كثر أنهك البدن .

قال بقراط ينبغى للعلماء ان يتركوا الفكر وقتاً ما لئلا ينهك أبدانهم .

قلت : ولايجوز للعاقل ان يخلى نفسه من الفكر ولكن يكون فيما يتصور له نيله ، فأما إذا تفكر العامى فى أن يكون خليفة وأن ينال علم أبى حنيفة والشافعى ، ثم يجمع بينه وبين زهد بشر ومعروف الكرخى ، ويحصل مثل مال عبد الرحمن بن عوف ؛ فهذه أفكار تضنى وتردى خصوصاً إذا قنع بالفكر ، واستعمل الكسل عن الطلب ، وإنما ينبغى أن يتفكر فيما تصل إليه قدمه ، ويطمع لمثله فيه من الخير ، ويتفكر فى جهاده للطبع فى دفع الشر ، فقد تفكر خلق كثير من العصاة فى عواقبهم ، فتابوا وكثير من الملوك فى غرور الدنيا ، فتزهدوا .

قال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه [١] .

وبسنده إلى أم الدرداء قيل لها ماكان افضل عمل ابى الدرداء ؟ قالت : التفكر والاعتبار [٢] .

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد ص ٤٠٣ ، ومحمد بن نصر فى قيام الليل ص ٦٠ .

(٢) أخرجه ابن المبارك فى الزهد ص ٣٠٢ من طريق عون بن عبد الله عن أم الدرداء ، أنه قيل لها ماكان أكثر عمل أبى الدرداء قالت التفكر .

وأخرجه أبو نعيم فى الحلية ٢٠٨/١ قالت : التفكر والاعتبار ، ٢٠٩/١ عن أبى الدرداء : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

٣٩

ووقف مالك بن دينار ليلة فى داره على قدمه إلى الفجر فقال : مازال أهل النار يعرضون علىّ بسلاسلهم وأغلالهم إلى الصباح .

وقال بعض الحكماء : بترداد الفكر ينجاب العمى .

* * *

الباب الثامن عشر
فى دفع فضول الحزن

اعلم أن العاقل لا يخلو من الحزن ؛ لأنه يتفكر فى سالف ذنوبه فيحزن على تفريطه ، وفيما قال العلماء والصالحون فيحزن لفوته .

بسنده إلى مالك بن دينار قال : إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب ، كما أن البيت إذا لم يسكن خرب [(١)] .

وبسنده إلى إبراهيم بن عيسى [(٢)] قال : مارأيت أطول حزناً من الحسن وما رأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة .

وبسنده إلى مالك بن دينار قال بقدر ما تحزن للدنيا كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك وإذ قد تبين أن الحزن لا يزال ملازماً قلوب المتقين فينبغى أن يتقى إفراطه لأن الحزن إنما يكون على الفائت وقد عرفنا طريق الاستدراك .

وجاء فى الحديث : « بقية عمر المؤمن لا قيمة له يستدرك فيه مافات » فإن كان المحزون عليه لا يمكن استدراكه لم ينفع الحزن ، وإن كان ديناً فينبغى أن يقاومه برجاء الفضل والرحمن ليعتدل الحال ، فأما إذا كان الحزن لأجل الدنيا وما فات منها فذلك الخسران المبين ، فليدفعه

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ٣٦٠/٢ عن مالك بن دينار بلفظ : « إذا لم يكن فى القلب حزن خرب ، كما إذا لم يكن فى البيت ساكن يخرب » .

(٢) أبو نعيم فى الحلية ٣٩٣/١٠ قال أبو نعيم : إبراهيم بن عيسى الزاهد صحب معروف الكرخى وسمع من أبى داود الطيالسى ومحمد بن المقرئ .

العاقل عن نفسه . وأَقوى علاجه أن يعلم أنه لا يرد فائتاً وإنما يضم إلى المصيبة فتصير اثنتين ، والمصيبة ينبغى أن تخفف عن القلب وتدفع ، فإذا استعمل الحزن والجزع زادت ثقلاً . قال ابن عمرو إذا استأثر الله بشىء فالهَ عنه ثم فى الخلف عن الفائت مايسلى ، فإن عدم مايسلى اجتهد فى صرف ذلك عن قلبه ، وليعلم أن الداعى إلى الحزن الهوى ، لا العقل ، لأن العقل لايدعو إلى مالا ينفع ، وليعلم أنه سيسلو بعد حين ، فليجتهد فى تقديم المؤخر ، وليرتح مابين الزمانين ، ومما يمحق الحزن العلم بأنه لا يفيد ، والإيمان بالثواب ، ويذكر من أصابه أكثر من مصيبته .

* * *

الباب التاسع عشر
فى دفع فضول الغم والهم

الغم يكون للماضى ، والهم للمستقبل ، فمن اغتم لما مضى من ذنوبه نفعه غمه على تفريطه ، لأنه يثاب عليه ، ومن اهتم بعمل خير ، نفعته همته ، فأما إذا اغتم لمفقود من الدنيا فالمفقود لا يرجع ، والغم يؤذى ، فكأنه أضاف إلى الأذى أذى ، كما قلنا فى الحزن ، وينبغى للحازم أن يحترز مما يجلب الغم ، وجالبه فقد المحبوب ، فمن كثرت محبوباته كثر غمه ، ومن قللها قل غمه ، فإن قال قائل إذا لم أجد محبوباً اغتممت ، قيل له صدقت ، ولكن لا يبلغ غمك بالعدم معشار عشر غم من فقد المحبوب ، ألا ترى أن من لا ولد له يغتم ، ولكن لا كغم من أصيب بولده ، ثم إن الإنسان كلما طال ألفه لما يحبه واستمتاعه به تمكن من قلبه ، فإذا فقده أحس من مر التألم فى لحظة لفقده بما يزيد على لذات دهره المتقدم ، وهذا لأن المحبوب ملائم للنفس كالصحة فلا تجد النفس لذتها إلا عند وجودها ، وفقدها مناف لها ، ولذلك تألم بالفقد مالا تفرح بالموجود لأنها ترى وجود المحبوب كالحق الواجب لها ، فينبغى للعاقل تقليل الألفة ، فإن اضطر إلى جوالب الغم فاثمرت الغم فعلاجه فى الأول الإيمان بالقدر ، وأنه لابد مما قضى ، ثم يعلم أن الدنيا موضوعه على الكدر ، فالبناء إلى النقض ، والجمع إلى التفرق ، ومن رام بقاء مالا يبقى كان كمن رام وجود مالا يوجد ، فلا ينبغى أن يطلب من الدنيا مالم توضع عليه كما قال الشاعر :

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الإيذاء والأكدار

ثم يتصور مانزل به مضاعفاً فيهون عليه حينئذ ماهو فيه ، ومن عادة الحمال الحازم أن يترك فوق حمله شيئاً ثقيلاً ، ثم يمشى خطوات ، ثم يولى به فيخف الأمر عنه ، ثم ليرتقب زمن العافية هجوم البلاء ، فإذا

هجم مايكرهه ، وليتمثل كلما يتصور نزوله نازلاً ، فإذا نزل بعض ذلك كان ريحاً مثل أن يتصور أن يؤخذ ماله كله ، فإذا أخذ البعض عد الباقى غنيمة ، ويتصور أن يعمى ، فإذا رمد سهل الأمر ، وكذلك جميع المضرات قال الشاعر :

يمثل ذو اللب فى نفسه مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه لما كان فى نفسه مثلا
وذو الجهل يأمن أيامـه وينسى مصارع من قد خلا
فإن بدهته صروف الزمان ببعض مصائبه أعولا
ولو قدم الحزم فى أمره لعلمه الصبر حسن البلا

قال بعض السلف : رأيت امرأة فتعجبت من نضارتها ، فقلت هذا وجه ما طرقه حزن ، فقالت لا تقل هذا ، فما أعرف من ناله ما نالنى ؛ كان لى زوج ، فاشترى أضحية فذبحها ، وله ولدان ، فقال الأكبر للأصغر تعال حتى أريك كيف ذبح أبى الشاة ، فذبحه ، فلما طلبناه هرب ، فخرج الأب فى طلبه فهلكا ، فقلت وكيف حزنك ، قالت لو وجدت فى الحزن دركا لاستعملته .

فصـــل

وقد يقع الحزن والغم من غلبة السوداء فيعالج بما يزيل السوداء بالمفرحات . والغم يجمد الدم ، والسرور يلهب الدم حتى تعلو حرارته الغريزية ، وجميعاً يضران ، وربما قتلا إن لم يعجل تفتيرهما .

* * *

الباب العشرون
فى دفع فضول الخوف والحذر من الموت

الخوف والحذر إنما هما للمستقبل ، والحازم من أعد للخوف عدته قبل وقوعه ، ونفى فضول الخوف مما لابد منه ، إذ لا ينفعه خوفه منه ، وقد اشتد الخوف من الله تعالى بكثير من الصالحين حتى سألوا الله تعالى تقليل ذلك ، والسبب فى سؤالهم أن الخوف كالسوط فإذا ألح بالسوط على الناقة قلقت ، وإنما ندب به المتوانى .

بسنده إلى سفيان الثورى قال لشاب يجالسه أتحب أن تخشى الله حق خشيته ؟ قال نعم ، قال أنت أحمق لو خشيته حق خشيته ما أديت الفرائض (١) .

فصــــل

ولا ينبغى للعاقل أن يشتد خوفه من نزول المرض ، فإنه نازل لابد ، وخوف مالا بد أن يأتى زيادة أذى ، فأما الخوف من الموت والفكر فيه ، فإنه لا سبيل إلى دفعه عن النفس ، وانما يخفف الأمر العلم بأنه لابد منه ، فلا يفيد الحذر إلا زيادة على المحذور ، وكلما تصورت شدته كانت كل تصويره موتاً ، فليصرف الإنسان فكره عن تصور الموت ليكون ميتاً مرة لا مرات ، ويكون صرف الفكر ربحاً ، وليعلم أن الله تعالى قادر على

---

(١) سفيان الثورى قال الذهبى فى سير أعلام النبلاء ٢٢٩/٧ - ٢٧٩ هو شيخ الإسلام إمام الحفاظ سيد العلماء العاملين فى زمانه أبو عبد الله الثورى الكوفى مصنف كتاب الجامع ولد سنة سبع وتسعين . ومات فى أول سنة إحدى وستين ومائة .

تهوينه إذا شاء ، وليوقن بأن مابعده أَخوف منه ، لأن الموت قنطرة إلى منزل إقامة ، وإنما ينبغى للإنسان أن يكثر من ذكر الموت ليعمل له ، لا لنفس تصويره وتمثيله ، فإن خطر على القلب الحزن على فراق الدنيا فعلاج ذلك أن يعلم أنها ليست بدار لذة ، وإنما لذاتها راحة من مؤلم ، ومثل هذا لا ينافس فيه ، فإن حزن العاقل على فراق الدنيا لفوت العمل الصالح ، فقد كان السلف يحزنون لذلك . قال معاذ بن جبل عند موته : اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

فصـــل

ومن نزل به الموت فليعلم أنها ساعة تحتاج إلى معاناة صعبة لأن صورتها ألم محض ، وفراق المحبوبات ، ثم ينضم إلى ذلك هول السكرات ، والخوف من المال مآل ، ويأتى الشيطان فيسخط العبد على ربه ويقول انظر فى أى شيء ألقاك ، وما الذى قضى عليك ، وكيف يؤلمك ، وها أنت تفارق ولدك وأهلك وتلقى بين أطباق الثرى ، فربما أُسخطه على ربه وكره قضاء الله تعالى إليه ، وأنطقه بكلام يتضمن نوع اعتراض ، وربما حسن إليه الجور فى الوصية ، وأن يزوى لبعض الورثة ، إلى غير ذلك من المحن ، فتعين حينئذٍ الحاجة إلى معالجة ابليس ومعالجة النفس .

وقد نقل أبو داود من حديث أبى اليسر عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « أعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » (١) .

---

(١) أخرجه أبو داود ١٥٥٢ و ١٥٥٣ ، والنسائى ٢٨٣/٨ من طريق أفلع =

وفى تلك الساعة يقول الشيطان لأعوانه إن فاتكم الآن لم تقدروا عليه أبداً . فأما العلاج لتلك الشدائد فينبغى أن نذكر قبله مقدمة وهو أن من حفظ الله فى صحته حفظه الله فى مرضه ، ومن راقب الله فى خطراته حرسه الله عند حركات جوارحه .

وفى حديث ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة » (١) ثم قد سمعت قصة يونس عليه السلام لما كانت له أعمال خير متقدمة انتاشته من شدته فقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٢) [الصافات : ١٤٤] . ولما لم

= مولى أبى ايوب عن أبى اليسر أن رسول الله ﷺ كان يدعو « اللهم إنى اعوذ بك من الهدم وأعوذ بك من التروى وأعوذ بك من الغرق والحرق والهرم وأعوذ بك أن يتخطبنى الشيطان عند الموت وأعوذ بك أن اموت فى سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديغاً .

وقال الخطابى : استعاذته من تخبط الشيطان عند الموت هو أن يستولى عليه الشيطان عند مفارقته الدنيا فيصله ويحول بينه وبين التوبة أو يعوقه عن اصلاح شأنه والخروج من مظلمة تكون قبله أو يؤيسه من رحمة الله أو يتكره الموت ويتأسف على حياة الدنيا فلا يرضى بما قضاه الله من الفناء والنقلة إلى الدار الآخرة فيختم له بالسوء ويلقى الله وهو ساخط عليه . وقد روى أن الشيطان لايكون فى حال أشد على ابن آدم منه فى حال الموت ويقول لأعوانه : دونكم هذا فإن فاتكم اليوم لم تلحقوه بالله نعوذ من شره ونسأله أن يبارك لنا فى ذلك المصرع وأن يختم لنا بخير . ا هـ .

(١) أخرجه الترمذى رقم (٢٥١٦) وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .
وأخرجه أحمد ٣٠٧/١ و ٣٠٨ ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والأسماء والصفات ص ٧٦ ، وانظر الدر المنثور ٦٦/١ ، تفسير ابن كثير ٩١/٧ .

(٢) سورة الصافات ، الآية : ١٤٤ .

يكن لفرعون عمل خير لم يجد وقت الشدة متعلقاً فقيل له ﴿ الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند الموت : « سيدى لهذه الساعة خبأتك فأما من ضيع فى صحته فإنه يضيع فى مرضه »

كما نقل عن بعض الصحابة أنه رأى شيخاً يطلب من الناس فقال هذا ضيع أمر الله فى صغره فضيعه الله فى كبره .

فأما نفس العلاج فينبغى أن تشجع النفس وتقول لها إنما هى ساعة ثم أرجو كمال الراحة كما قال عليه السلام : « لا كرب على أبيك بعد اليوم » (٢) ودعى أبو بكر بن عياش عند الموت إلى الرجاء فقال كيف لا أرجوه وقد صمت له ثمانين رمضان .

وقال المعتمر بن سليمان : قال لى أبى « يابنى اقرأ على أحاديث الرخص لعلى ألقى الله وأنا حسن الظن به » .

فينبغى للمؤمن أن يرمى صوت الخوف ويحدو الناقة كما قال حادى البادية

بشرها دليلها وقالا   غداً ترين الطلح والجبالا

بسنده إلى أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى » متفق عليه .

وبسنده إلى جابر قال سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول : « لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن » أخرجه مسلم .

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩١ .

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٦٢٩ .

وقال الفضيل بن عياض : الخوف أفضل من الرجاء فإذا نزل الموت فالرجاء أفضل .

قلت وهذا صحيح لما بينا من أن الخوف سوط يساق به المتوانى ، فإذا كَلَّ البعير لم يبق إلا الرفق ، فإن قيل فما لقول فى خوف عمر بن عبد العزيز عند الموت فالجواب أنه لما تعلقت به حقوق الرعية خاف من مطالب طبعه مبنى على الشح كان يقول إنما أخاف ولايتكم هذه على أنه قد كان يتمسك بأذيال الرجال فإن ابن عباس لما قال له أبشر يا أمير المؤمنين وُلِّيتَ فَعَدَلْت ثم شهادة فقال أتشهد لى بهذا عند الله يا ابن عباس [١] .

فصــــل

فإن اشتد بالمريض كرب ، فليحسب ذاك فى باب الأجر ، فقد كانوا يستحبون للمريض شدة النزع ليكفر ذلك عنه الذنوب ، بسنده إلى إبراهيم قال : كانوا يستحبون أن يجهدوا عند الموت . وذكر بسنده عن عمر بن عبد العزيز قال : ما أحب أن تهون على سكرات الموت أنه آخر مايكفر به عن المرء المسلم .

---

(١) هذا الكلام قاله ابن عباس رضى الله عنهما لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما طعن أخرجه أحمد فى المسند ٤٦/١ ، والبيهقى فى اثبات عذاب القبر من طريق داود بن أبى هند عن عامر عن ابن عباس قال : دخلت على عمر بن الخطاب حين طعن فقلت أبشر بالجنة يا أمير المؤمنين أسلمت حين كفر الناس وجاهدت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس وقبض رسول الله ﷺ وهو عنك راض ولم يختلف فى خلافتك إثنان وقتلت شهيداً فقال أعد علىّ فأعدت عليه فقال والله الذى لا إله غيره لو أن لى ماعلى الأرض من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع .

فصـــــل

وينبغى للمريض مادام ثابت العقل أن يتوب ليلقى الله طاهراً من كل ذنب ، وأن يجرد وصيته ، وأن يسلم أهله وولده إلى الله سبحانه وتعالى ، فإنه يتولى الصالحين .

فصـــــل

فإن أزعجه الشيطان بذكر البلى ، فليعلم أن البلى واقع على المركب والراكب قد رحل ، وليعلم أن الشريعة قد مضت بوصول المؤمن بعد الموت إلى النعيم الدائم ، فمن حقق الإيمان لم يحزن ، لأن مآل المؤمن إلى الخير ، ومن لم يتحقق الإيمان فليحزن لفقد التحقيق .

وبسنده إلى كعب عن النبى ﷺ قال « نسمة المسلم طير تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده » [1] ومقصودنا من هذا الباب أن يكون الخوف من الموت بمقدار لئلا ينهك البدن ويبالغ فى الأذى وأن يخاف لما بعد الموت فيعمل له .

* * *

---

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير ٣٠٦/٥ ، والحميدى ٨٧٣ ، والطبرانى فى الكبير ٦٤/١٩ .

الباب الحادى والعشرون
فى دفع فضول الفرح

إذا اشتد الفرح التهب الدم ، وذلك يضر ، وربما قتل إن لم يعدل ، وينبغى للإنسان إذا رأى اسباب الفرح أن يدرج نفسه إليه ، فإن يوسف عليه السلام لما التقى بأخيه سأله هل لك من أب ؟ ولم يزل يلاطفه لئلا يفجأه بالسبب المفرح ، والفرح ينبغى أن يكون بمقدار ليعدل الحزن ، فأما إذا أفرط فإنه دليل على الغفلة القوية ، إذ لا وجه للفرح عند العاقل ، فإنما يفرح بالطبع لما يفرح ، ثم يذكر مصيره وخوف مآله ، فينمحى ذلك الفرح ، ومتى قويت غفلة الفرح حملت إلى الأشر والبطر ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (١) يعنى الأشرين الذين خرجوا بالفرح إلى البطر . وعلاج شدة الفرح بالفكر فيما قد سلف من الذنوب ، وفيما بين يدى العبد من الشدائد .

وقد قال الحسن البصرى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب بها فرحاً (٢) .

* * *

---

(١) سورة القصص : الآية : ٧٦ .

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل ص ٣١٦ من طريق إبراهيم بن عيسى اليشكرى عن الحسن به .

الباب الثانى والعشرون
فى دفع الكسل

الموجب للكسل حب الراحة ، وإيثار البطالة ، وصعوبة المشاق . وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ كان يكثر أن يقول « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل » [(١)] .

وفى إفراد مسلم من افراد أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » [(٢)] .

وفى كل حين احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، فإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل قدر الله وماشاء فعل ، فإن (لو) يفتح عمل الشيطان .

وقال ابن مسعود إنى لأبغض الرجل أراه فارغاً ليس فى شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة [(٣)] وقال يكون فى آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم يسمون الأتيان .

وقال ابن عباس تزوج التوانى بالكسل فولد بينهما الفقر .

وقال مالك بن دينار مامن أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة ، فإن صبر صاحبها أفضت به إلى روح ، وإن جزع رجع .

وقال سفيان الثورى مضى القوم على الخيل العتاق وبقينا على حمر دبرة .

---

(١) أخرجه البخارى ٩٨/٨ ، مسلم ص ٢٠٧٩ و ٢٠٨٠ و ٢٠٨٨ (عبد الباق)

(٢) أخرجه مسلم القدر (٣٤) .

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ١٣٠/١ من طريق يحيى بن وثاب عن ابن مسعود رضى الله عنه .

فصـــل

وعلاج الكسل تحريك الهمة بخوف فوات القصد ، وبالوقوع فى عقاب اللوم ، أو بالحصول فى بيد التأسف فإن أسف المفرط إذا عاين أجر المجتهد أعظم من كل عقاب ، وليفكر العاقل فى سوء مغبة الكسل ، فرب راحة أوجبت حسرات وندماً ، ومن رأى جاره قد سافر ثم عاد بالأرباح زادت حسرة أسفه على لذة كسله أضعافاً ، وكذلك إذا برع أحد الرفيقين فى العلم وتكاسل الآخر . والمقصود أن ألم الفوات يربو على لذة الكسل . وقد أجمع الحكماء على أن الحكمة لا تدرك بالراحة ، فمن تلمح ثمرة الكسل اجتنبه ، ومن مد فطنته إلى ثمرات الجد نسى مشاق الطريق . ثم إن اللبيب يعلم أنه لم يخلق عبثاً ، وإنما هو فى الدنيا كالأجير أو كالتاجر . ثم إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء فى القبر كلحظة ، ثم إضافة ذلك إلى البقاء السرمدى ، أما فى الجنة وأما فى النار ليس بشىء . ومن انفع العلاج النظر فى سير المجتهدين ، فالعجب من مؤثر البطالة فى موسم الأرباح وتارك الاستلاب وقت النثار .

بسنده إلى فرقد ، قال إنكم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل ألم تروا إلى الفاعل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه فإذا فرغ اغتسل ولبس ثوبين نقيين ، وأنتم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل (١) .

* * *

---

(١) حلية الأولياء ٤٧/٣ من طريق ابن شوذب عن فرقد السبخى .

الباب الثالث والعشرون
فى تعريف الرجل عيوب نفسه

اعلم أن النفس محبوبة وعيوب المحبوب قد تخفى على المحب ، وفى الناس من يقوى نظره وجهاده للنفس فينزلها منزلة العدو فى المخالفة فيظهر له عيوبها . قال إياس بن معاوية « من لم يعرف عيب نفسه فهو أحمق » فقيل له فما عيبك قال « كثرة الكلام » وهذا أمر نادر والعمل على الغالب ، فإن الغالب أن يخفى الإنسان عيوب نفسه ولسنا نريد أنه لايعرف عيباً فإن العاقل إذا أتى عيباً عرفه ، وإنما غرضنا العيوب الباطنة ، فإنها كالأمراض الباطنة التى لايعلم بها الطبيب فيصف لها دواءً ، ولا عليها إمارة ، ومحبة الإنسان لنفسه تمنعه أن يرى العيب الخفى عيباً كما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

وقد روى أن رجلاً صحب رجلاً فلما أراد أن يفارقه قال له أخبرنى عن عيوبى فقال سل غيرى فإنى كنت أراك بعين الرضا .

فإن قيل فإذا كانت العيوب باطنة والإنسان لايراها عيوباً فكيف الطريق إلى تعرفها فالجواب إن لذلك سبع طرق :

الطريق الأول : أن يتخير صديقاً من أعقل مخالطيه ويسأله إبانة مايرى من قبيحة ويعرفه أن ذلك منة منه عليه ، فإذا أخبره ابتهج بما سمع منه ، ولم يظهر له الحزن على ذلك لئلا يقصر فى شرح الأمور ، ويقول له متى كتمتنى شيئاً عددتك غاشاً .

والطريق الثانى : أن يبحث عما يقوله فيه جيرانه وإخوانه ومعاملوه وبماذا يمدحونه أو يذمونه .

والطريق الثالث : أن يتطلع إلى مايقول فيه الأعداء ؛ فإن العدو

بحاث عن العيوب ، ومن هذا الوجه ينتفع الإنسان بعدوه ما لا ينتفع بصديقه لأن العدو يذكر النقص والصديق يستر الخلل ، فإذا عرف الإنسان من طريق عدوه نقصه اجتنبه .

والطريق الرابع : أن يصور أفعاله فى غيره ثم يستعمل منها مايستحسن ويترك مايستقبح .

والطريق الخامس : أن يعمل فكره فى عواقب خلاله وثمراتها فيرى عيب العيب وحسن الحسن ، فإن الفكر الصادق نافذ .

والطريق السادس : أن يعرض أعماله على محك الشرع ويريها نافذ العقل ويضعها فى موازين العدل ، فإنه يرى الأرجح والأدون .

والطريق السابع : أن ينظر فى سير العاملين ثم يقيس أفعاله بأفعالهم فيرى حينئذ أن آثار النقص عيب فيجتنبه فضلاً عن فعل القبيح .

* * *

الباب الرابع والعشرون
فى تنبيه الهمة الدنية

إذا كانت الهمة الدنية طبعاً لم ينجع فيها العلاج ؛ فإن كانت مكتسبة بصحبة الأدنياء أو لغلبة الطبع والهوى فعلاجها قريب ، وذلك من وجوه : منها مقاطعة أهل الدناءة أنفة منهم ومواصلة أرباب الهمم العالية ، ثم التفكر بالعواقب ، ومآل الدناءة ومصير أولى الجد والاجتهاد ؛ كما قال عبد الصمد : مات رجل من السعاة وقد بقى له شرط ، والناس يقولون له مت اليوم تحيا أبداً فانتبهت بها ، ومن تفكر فى المرتفعين فى الهمم علم أنهم كهو من حيث الأصلية والآدمية ، غير أن حب البطالة والراحة جنيا عليه فأوثقاه ، فساروا وهو قاعد ، ولو حرك قدم العزم لوصل قال الشاعر :

إذا أعجبتك خصال امرئ ... فكنه تكن مثل ما أعجبك
فليس على الجود والمكرمات ... إذا جئتها حاجباً يحجبك

ومن نظر فى أخبار السلف رأى عموم الفقهاء والعلماء ، وأكثر المشار إليهم بذلك من الموالى ومن الضعفاء وأهل الحرف الدنية ، إلا أن الهمم أثرت فأثارت عن موطن ، ولو تفكر أرباب الهمم الدنية فى عواقبها وما يجىء عليهم ، لرأوا البطالة عدواً ، وأنما صحبوا دناءة الهمة تعجلاً للراحة ، وما يلقونه من الحسرات على فوت الفضائل والسقوط من أعين الناس ؛ والإهانة بهم أعظم من كل كرب وشدة . وما يناله أرباب التعب من الراحة فى تعظيم الخلق لهم ، وارتفاع قدرهم فى الدنيا قبل الآخرة ، ينسى مرارة كل نصب ، فكأنه ماتعب من استراح ولا استراح من تعب .

بسنده إلى أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال له يا ابن آدم هل

رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ فى الجنة صبغة ثم يقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرت بك شدة قط ؟ فيقول لا والله يارب مامر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط » .

وبيان هذا أن التعب ينقضى وتبقى الراحة ، والراحة تذهب وتبقى الحسرة ، والمقام موسم ، والفوات معترض ، والاستلاب عاجل ، وفى بعض هذا إزعاج للمتوانى .

* * *

الباب الخامس والعشرون
فى رياضة النفس

الأصل فى الأمزجة الصحة ، والعلل طارئة ، وكل مولود يولد على الفطرة ، ويوضح ماقلناه إن الرياضة لا تصلح إلا فى نجيب ، والكودن لا تنفعه الرياضة ، والسبع وإن ربى صغيراً لا يترك الافتراس إذا كبر ، وقد عرفت تلك الحكاية (فمن أنباك أن أباك ذيب) .

واعلم أن فى الإنسان قوى ثلاثة : قوة ناطقة ، وقوة شهوانية ، وقوة غضبية ، فينبغى لمن شرفه الله تعالى بحب العلم أن يعتنى بتكميل النفس الناطقة التى فضله الله تعالى بها على سائر الحيوانات وشارك بها الملائكة ، فيجعلها هى المسلطة على القوتين الأخريين ؛ أعنى الشهوانية والغضبية ، لتكون منزلتها فى البدن بمنزلة الراكب للفرس ، فإن الفارس ينبغى أن يكون هو المسلط على الفرس لاستعلائه فيمضى بها أين يشاء ويعقها إذا شاء ، فكذلك ينبغى أن تكون القوة الناطقة هى المستعلية على باقى القوى ، تستعملها كما تحب ، وتكفها حين تحب ، ومن كان كذلك استحق أن يسمى أنساناً حقيقة . قال أفلاطون : الإنسان بالحقيقة من كانت نفسه الناطقة أقوى الأنفس لأن الشهوانية إذا أفرطت خرج الإنسان إلى طبع البهيمية ، ومن سيب هواه فى مرعاه وجعل حبله على غاربه فقد خرج عن مركزه فصار أخس من البهائم ، لأن تلك تمضى بطباعها ، وهذا قد خالف طبعه ، ومتى أفرطت القوة الغضبية خرج الإنسان إلى أخلاق السباع والضوارى ، فينبغى أن يروض نفسه بمخالفة الشهوانية ويكسر الغضبية ، ويتبع القوة الناطقة ، حتى يتشبه بالملائكة ، ويتحرز من عبودية الشهوة والغضب .

فصل

واعلم أن الرياضة للنفس تكون بالتلطف والتنقل من حال إلى حال ، ولا ينبغى أن يؤخذ أولاً بالعنف ولكن بالتلطف ، ثم يمزج الرغبة والرهبة ، ويعين على الرياضة صحبة الأخيار ، والبعد عن الأشرار ، ودراسة القرآن والأخبار ، وإجالة الفكر فى الجنة والنار ، ومطالعة سير الحكماء والزهاد .

وقد كان بعض السلف يشتهى الحلواء فيعدها لنفسه فإذا صلى بالليل أطعمها .

وكان الثورى يأكل مايشتهى ثم يقوم إلى الصباح ويقول أطعم الزنجى وكده ، ومازال المحققون يلطفون بنفوسهم إلى أن ملكوها فقهروها .

وقال بعض جيران مالك بن دينار : سمعته ليلة يقول لنفسه هكذا فكونى ، فلما أصبحت قلت له مامعك فى الدار أحد فلمن قلت ، قال إن نفسى طلبت منى أدما وألحت فمنعتها الطعام ثلاثة أيام ، فلما كانت الليلة وقد انقضت الأيام وجدت كسرة يابسة فبادرت إليها ، فقلت قفى آتيك بخبز لين ، فقالت قنعت بهذه قلت هكذا فكونى .

واعلم أنه إذا علمت منك النفس الجد جدت ، وإذا عرفت منك التكاسل طمعت فيك كما قال الشاعر :

ويعرف أخلاق الجواد جواده   فيجهده كراً ويرهقه ذعراً

ومن الرياضة لها محاسبتها على كل فعل وقول ، ومحاسبتها فى كل تقصير وذنب ، فإذا تمت رياضتها حمدت ماذمت من تعبها .

قال ثابت البنانى : كابدت الليل عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة .

وقال أبو يزيد : مازلت أسوق نفسى إلى الله تعالى وهى تبكى حتى سقتها وهى تضحك وفى هذا المعنى قول الشاعر :

مازلت أضحك أبكى كلما نظرت   إلى أن اختضبت أجفانها بدمى

وبعد هذا فلا ينبغى أن ينسى حقها ، فإن من حقها إعطاءها حظوظها التى لا تقدح فى مقصود الرياضة فإنها إذا منعت مقاصدها فى الجملة عمى القلب ، وتشتت الهم ، وتكلف التعبد ، واعلم أن قدر النفس عند الله سبحانه أعظم من قدر العبادات ، ولهذا أباح الفطر للمسافر ، وإنما يعقل هذا العلماء .

* * *

الباب السادس والعشرون
فى ذكر رياضة الأولاد

أقوم التقويم ماكان فى الصغر ، فأما إذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرن كان رده صعباً قال الشاعر :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومتـه الخشب
قد ينفع الأدب الأحداث فى مهل وليس ينفع فى ذى الشيبة الأدب

ثم المواظبة على الرياضة أصل عظيم ، خصوصاً فى حق الصبيان فإن ذلك يفيدهم أن يصير الخير عادة قال الشاعر :

لاتسه عن أدب الصغيـ ـر وإن شكا ألم التعب

واعلم أن الطبيب ينظر إلى سن المعالج ومكانه وزمانه ثم يصف ، فكذلك ينبغى أن تكون رياضة كل شخص على قدر حاله ، وإمارة فلاح الصبى وفساده تتبين من طفولته ؛ فالنجيب منهم يتنبه بالتعلم ، والذى ليس بنجيب لا ينفعه التعلم ، كما لا يصير الهجان بالرياضة نجيباً ، وينبغى أن يتلف بالصبى .

قال رجل لسفيان الثورى نضرب أولادنا على الصلاة قال بل بشرهم .

وكان زبيد اليافى يقول للصبيان من صلى منكم فله خمس جوزات .

وقال إبراهيم بن أدهم : أى بنى اطلب الحديث فكلما سمعت حديثاً فلك درهم فطلب الحديث على هذا .

فصـــل

وليعلم الوالد أن الولد أمانة عنده ، فليجنبه قرناء السوء من

الصغر ، ولا يعوده ، وليلق إليه الخير ، فإن قلبه فارغ يقبل مايلقى إليه ، وليحبب إليه الحياء والسخاء ، وليلبسه الثياب البيض ، فإن طلب الملون قال له تلك ملابس النساء والمخانيث ، وليبادر بأخبار الصالحين ، وليجنبه أشعار الغزل لأنها بذر الفساد ، ولا يمنع من أشعار السخاء والشجاعة ليمجد وينجد ، فإن أساء تغافل عن إساءته ، ولا يهتك مؤدبه مابينه وبينه من الستر ، ولا يوبخ إلا سراً ، ويمنع من كثرة الأكل والنوم ، ويعود الخشونة فى المطعم والمفرش فإنه أصح لبدنه ، ويعالج بالرياضات الجسمانية كالمشى ، ويؤدب بالنهى عن استدبار الناس والامتخاط بينهم ، والتثاؤب ، فإذا علقت به خلة قبيحة بولغ فى ردعه عنها قبل أن تتمكن ، ولا بأس بضربه إذا لم ينفع اللطف .

فقد قال لقمان لابنه : يابنى ضرب الوالد للولد مثل السماد للزرع .

وإذا رآه عرماً فى صغره فليتلطف به ، فقد قال ابن عباس عرامة الصبى زيادة فى عقله .

فصل

وكان الحكماء يقولون : ابنك ريحانتك سبع سنين ، وخادمك سبع سنين ، فإن صار ابن أربع عشرة سنة فإن أحسنت إليه فهو شريكك ، وإن أسأت إليه فهو عدوك ، ولا ينبغى أن يضرب بعد بلوغه ولا أن يساء إليه ، لأنه حينئذٍ يتمنى فقد الوالد ليستبد برأى نفسه ، ومن بلغ عشرين سنة ولم يصلح فبعيد صلاحه ، إلا أن الرفق متعين بالكل .

* * *

الباب السابع والعشرون
فى رياضة الزوجة ومداراتها

من المتعين المبالغة فى النظر به هذا الباب ، فأصلح الأمور أن يتزوج الرجل البكر التى لم تعرف سواه ، فقد قالت الحكماء البكر لك والثيب عليك ، إلا أنه من أعظم الغلط أن يتزوج الشيخ الكبير طفلة فإنها تصير كالعدو ، ولكنه يحبسها عن أغراضها ولا تقدر أن تفى مرادها ، وهى تنفر عن الشيخ طبعاً ، فإن ابتلى الإنسان بذلك فليسم بغضه عندها بحسن خلقه واحتماله وكثرة الإنفاق عليها .

وقد أمعنا الشرح لهذه الجملة فى كتاب « الشيب » وينبغى أن يتزين لها كما يحب أن تتزين له ، ويستر جسده عنها فلا ترى منه إلا المستحسن ، وكذلك ينبغى لها أن تفعل .

فصـــــل

ولا ينبغى للرجل أن يمزح مع المرأة فتطمع فيه طمعاً يخرجها عن طاعته ، ولا أن يسلم ماله إليها فيصير هو كالرهن فى يدها ، فربما استغنت واستوثقت لنفسها ثم تركته ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوالَكُمْ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ (١) : بل ينبغى أن يمزح بنوع من الهيبة.

فصـــــل

وأكثر العلاج فى إصلاح المرأة منعها من محادثة جنسها ، ومن خروجها من بيتها ، واطلاعها من ذروته ، وأن تكون عنده عجوز تؤدبها وتلقنها تعظيم الزوج ، وتعرفها حقوقه ، وتعظم قليل الإنفاق عندها وتكون كالحافظ فإن عقل الصبى مأفون .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥ .

فصـــــل

وإن وجد الشيخ امرأة قد خرجت عن زمان الصبا ولم تدخل فى الكهولة كانت أصلح وأطيب لعيشه وأقل امتناناً عليه وأكثر توقيراً له .

فصـــــل

فأما الشاب فإنه يَذِلُّ ولا يُذَلُّ ، فإذا أراد التمتع بالنساء فالرأى له ، إن كان له مكنة اشترى الجوارى الصغار فإنهن لم يعرفن الغيرة وهى قليلة عندهن لموضع الملكة وقدرته على الاستبدال والبيع ، ولتكن معهن حافظة ، ولتكن على الحافظة حافظة .

فصـــــل

ومن رزق امرأة على مراداته فليهب ما فات لما حصل ، فإن الأصول إذا كانت محفوظة لم تذكر الفروع ، وكثرة النساء تحتاج إلى مؤنات عظام أقلهن حفظهن .

* * *

الباب الثامن والعشرون
فى رياضة الأهل والمماليك ومداراتهم

اعلم أن الأهل إذا رأوك قد فقتهم بمال أو جاه حسدوك . ومقاطعتهم محرمة ، فالمداراة لازمة ؛ وذلك بالبر لهم مع كتمان بواطن الأحوال عنهم . ومن أعظم الغلط حرمان بعضهم وإعطاء البعض ، فمن اختار ذلك فليجتهد فى إسرار الأمر لئلا يشترى بالمنع البغض . وأما المماليك فإنهم مالكون على الحقيقة لمالكيهم ، لأن المطاعم والمشارب إليهم ، فينبغى أن يتلطف بهم لئلا يحتالوا على القتل . قال بزر جمهر نحن ملوك على رعيتنا ، وخدمنا ملوك على أرواحنا ، ولا حيلة لنا فى الاحتراز منهم ، فنحن نداريهم . وليجعل الملك مع اللطف بهم هيبة ، إلا أن البر لهم يكون أغلب ، وأكثره فى حق من يسلم إليه الروح ، وهو صاحب المطعم والمشرب . واعلم أن المماليك وإن كانوا أهل ذكاء وفطنة يستتر منك عنهم شيء فربما احتالوا عليك ، وإن كانوا أهل غباوة لم تبلغ غرضاً فى استخدامهم لأنك تريد الشيء فلا يفهمون مرادك ، والصواب استخدام أهل الغفلة منهم فى الدواخل ، وأهل الذكاء منهم خارج البيت ، فحينئذ تتم الأغراض .

فصـــــل

ومن أعظم الغلط دخول المملوك المراهق إلى البيت ، خصوصاً إن كان حسن الصورة وفى البيت نسوة ، فإن الشر لا يؤمن فإن سلمن من ميل إليه لم يسلم هو من ميل .

وكذلك من باب المخاطرات ترك الولد البالغ بين الجوارى ، ومعلوم أن قوة الشهوة وجهل الصبا ينسيان مقدار الحرمة والتحريم ، فهذه أصول ينبغى أن يداوى بدوائها ولا تمهل فإنها تجر أموراً صعبة .

الباب التاسع والعشرون
فى معاشرة الناس ومداراتهم

لما كانت طباع الناس تختلف كانت مداراتهم لذلك صعبة ، فأصلح ما استعمل العاقل العزلة عنهم مهما أمكن فإنها راحة عظيمة ، فإذا اضطر إلى مخالطتهم خالطهم بالتلطف ، وإيفائهم الحقوق ، وإهمال حقه عليهم ، والحلم عن جاهلهم ، والعفو عن ظالمهم ، وايثار متكبرهم بالمجلس . ومن أعظم مايملكهم به السماح والعطاء ، فإنه يسترق به من لم يكن ينقاد وقد جاء فى الحديث « مداراة الناس صدقة » .

فصـــل

وإذا ابتلى العالم بمخالطة العوام فينبغى أن يلبس جنة الحذر ، فإن أغراضهم مختلفة ، يرضى أحدهم مايسخط الآخر ، ويغضب من الصواب ، لأنه يراه خطأ ، ولا يقبل مع جهله أقوال العلماء ، فليبعد العالم عنهم ما استطاع ، فإن مخالطتهم تشينه ، وتنقص من مقداره فى أعينهم ، فيهون علمه عندهم ، ولو رآه عاص يضحك ، أو يأكل ، أو سمع أنه قد تزوج ، لم يبق له عنده قدر ، فالحذر الحذر منهم ، فإنهم قتله الأنبياء ، فإذا اضطر إلى مجالستهم فليقلل الكلام معهم ، وليتكلم بما لا تسلق لهم به عليه ، ولا فيه احتمال لما لا يصلح لخطابهم ، وبعد هذا فالسلامة منهم طريفة .

* * *

الباب الثلاثون
فى ذكر السيرة الكاملة

علامة الكامل تربية القدرة له من الطفولة ، واعطاؤه الرأى التام ، والعقل الوافر من الصغر ، كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ وتخلق له همة عالية وشرف نفس ، فتحمله على طلب المعالى ، وتمنعه ركوب الدنايا ، فتراه فى لعبه يحب أن يكون رئيس الصبيان ، فإذا ترعرع كان الأدب شعاره من غير تعلم ، والحياء لباسه من غير ترهيب ، وأقل الرياضة فيه يؤثر ، كما ينفع المسن الفولاذ ولا ينفع الحديد ، فإذا عقل واستدل على صانعه ، وعلم لماذا خلق ، ونظر بماذا خوطب ، وإلى أين يصير ، وما المراد منه ، شمر عن ساق وساق ، فيطلعه العلم على حقائق الأمور ، فيرى أن أفضل الأشياء مايقربه من خالقه ، ثم يرى أن أقرب مايقرب به العلم والعمل ، فيجتهد فى إكمالهما على غاية مايطيق منهما بدنه ، وينهض النية والعزيمة بحمل الباقى . وأنت ترى خلقاً يقتصرون على بعض فنون العلم ؛ فهذا مع النحو جميع عمره ، وهذا مع الحديث طول دهره ، وهو يرى أن كل العلوم مقصود ، غير أنه لما علم أن العمر لا يسع الكل أخذ مايحتاج إليه من الكل زاداً لمسيره ، ونهض للعمل بمقتضاه ، فتراه ينتهب العمر خوف أن يذهب ومانال المراد ، ولا يضيع لحظة فى غير مهم ، وينافس نفسه فى زمان المطعم والنوم ، لعلمه بقصر المدة كما قال الشاعر :

فاقضوا مآربكم عجالاً إنما ... أعماركم سفر من الأسفار
وتراكضوا خيل السباق وبادروا ... أن تسترد فإنهم عوارى

فهو أبداً يجتهد فى عمارة وقته ، ويقهر هواه لإصلاح أمره ، ويقطع من العلم مهمه ، فقلبه مشغول عن اللهو بتصحيح قصده ، وجوارحه

مقبلة بالجد على طاعة ربه ، وقد اقتنع بما رزقه الله عن منن خلقه ، وعف عن أموالهم حفظاً لعرضه ، فسادهم لغناه عنهم ، وأزال فسادهم بوعظه ، فإن عاملهم فبالإنصاف ، لم يأخذ عليهم بفضله ، وإن استشاروه اجتهد فى نصحهم ، على أنه مشغول عن الكل بنفسه ، متأهب للنقلة ، همه جمع رحله يؤدى إلى كل لحظة فرضها من الحراسة بقوى لربه ويستظهر بكثرة الزاد لعلمه طول شوطه ، ثم يجتهد فى تهذيب العلم فى حياته ليحيى به أثره بعد موته ، وقد زهد فى الدنيا ، ولا يتناول إلا قوت وقته ، فإن فسح لنفسه فى مباح ، فمراده تقوية جمله على حمله ، ثم لم يزل به عرفان خالقه حتى دعاه إلى حبه ، فانصب الصب ، وانخرط فى سلكه ، فهو بين الخلق بجسمه ، وعند الخالق بقلبه ، أولئك ريحان الله فى أرضه ، نفوس أنفاس المريدين باستنشاق ريح أحدهم وبلفظه ، ويفوح نشر صدقهم بعد دفن راجلهم فى لحده ، قد ألبست قبورهم هيبة تخبر عن كل بقدره ، وإذا ذكرت أعمالهم يقوى بها المريد فى طريق صبره ، والمتقون فى فلك القيامة نجوم ، وهم كشمسه أو كبدره ، رزقنا الله وفاقهم ، ووهب لنا لحاقهم ، وألبسنا أخلاقهم بسعة فضله ، إنه سميع قريب من عبده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

* * *

فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة

* * *

فهرس الأشـــعار

* * *

فهرس الأعلام

* * *

فهرس الموضوعات

الصفحة

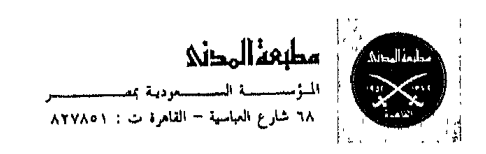
الصفحة

* * *

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
١٤ ميدان العتبة القاهرة
ت ٩٢٢٦٢٠

الثمن
١٢٥ قرش

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية – القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١